مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٥) العدد (١)
الإصدار الخامس عشر
(١-١٢) ٢٠٢٤

في الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

حافظ إبراهيم غربي

*باحث دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، **تونس***

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٢ فبراير ٢٠٢٤م

الملخّص

لم يكن نقد الطّبيعانيّة الفلسفيّة – الوارد في مقال اللّوغوس– تعبيرا على مرحلة من مسار الفكر الهوسّرلي بل كان خيطا ناظما لفلسفته. ولذلك فإنّ تأسيس الفلسفة علمًا للبدايات لا يستقيم طّبيعويّا ولا تقام الفلسفة الأولى إلّا علمًا بماهيّات الوعي وفينومينولوجيا ترنسندنتاليّة كلّية قبليّة. فهل هذا «بيان الحركة الفينومينولوجيّة»؟[1] ألا يمكن أن ترتدّ الفينومينولوجيا إلى فلسفة طبيعانيّة ؟

لن نناقش في هذا المقام تعريجات الفينومينولوجيا بعد هوسّرل من قبيل الفينومينولوجيا الوضعيّة لميرلوبنتي أو المنعرجين الأنطولوجي الهيدغيري والوجودي السارتري، ولا حتى المادي لميشال هنري وأنطونيو نغري. لقد عالجت كلها مشكل العودة إلى الأشياء من جهة أحد مُكَوِّنَيْ العقل في الفينومينولوجيا أي القصديّة مع إغفال –إلى حدّ– لقيمة المكوّن الثّاني أي الوعي الفينومينالي[2]. أغلب محاولات المصالحة بين الفينومينولوجيا والطّبيعانيّة العلميّة المنتصرة، إذن، اقتصرت على طبعنة القصديّة.

[1] _ كلكل وشيرر، أورده محمود رجب في مقدّمة؛ الفلسفة علما دقيقا، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص5

[2] _ آثرنا استخدام "فينومينالي" نقلا ل phénoménal التي تعني ما يُنسب إلى الظاهرة أو الظّواهر الدّاخليّة للوعي فهو ظاهري أو ظواهري، هذا الأمر يوقعنا في لبس بما أنّ ظاهري وظواهري تُستخدم في الكثير من الكتابات العربية للتدليل على "فينومينولوجي".

نهتمّ في هذا البحث بالوِجهة الثّانيّة التي اشتغل فيها الفينومينولوجيون على طبعنة الوعي محاولين الإجابة على سؤال: على أي نحو نتأوّل الفينومينولوجيا (التي تأسّست ضدّا للطّبيعانيّة) طبيعانيّا دون إخلال بمبادئها؟

كما نحاول تقديم بعض الأضاءات بشأن الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة التي لم تحضى من قبل بأي دراسة باللسان العربي. إيضاءات نقتصر فيها على دواعي الطبعنة في الفينومينولوجيا وعلى كيفيّة تأويل النّص الهوسّرلي طبيعانيّا ثم فتوحاته أسئلةً وميادينًا ونقدّم أنموذجا للإيضاح.

الكلمات المفتاحيّة: الطّبيعانيّة، طبعنة، الوعي، الفينومينولوجيا، الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة

*** مقدمة**

"طبعنة الفينومينولوجيا" تسميّة يُشار بها إلى تيّار فكري في الفلسفة والعلم في العشريّة الأخيرة للقرن XX بوجه خاصّ في الولايات المتّحدة وفرنسا. هذا التيّار يطمح إلى «الإثراء المشترك للفينومينولوجيا وللعلوم الإدراكية[3]»[4]. نذكر من بين روّاده، فرانسيسكو فاريلا وجون بوتيتو ونتالي دوبراز وجون-لوك بوتي وجون ميشال روي وبرنار باشود ونتالي دوبراز وهربار دارفوس.[¨]

يتساءل كلّهم: إذا كانت الفينومينولوجيا ممكنة بوصفها فلسفة أولى، فما عسى مجال تطبيقها يكون؟ ألا يفترض أن يكون هو عينه ما اعتبره هوسّرل علوما جزئيّة؟ فإذا أخذنا في الاعتبار أن العلوم الإدراكيّة قد شهدت تطورات هامّة في آخر القرن المنقضي، ألا يمكن مراجعة موقف هوسّرل من العلاقة بين الفلسفة الأولى وهذه العلوم؟ وبعبارة أخرى؛ هل بإمكاننا، اليوم، بناء فينومينولوجيا مُطبعَنة تربط جديد العلوم الإدراكيّة ببحث ماهويّ؟

١- طبعنة الفينومينولوجيا: الدّواعي والرّهانات

تواصل الجدل بعد هوسّرل حول علاقة العلم الفينومينولوجي بغيره من العلوم. البعض يعتبر الطّبعنة سوء فهم للمؤسّسة الهوسّرلية أو خيانة، وآخرون يدفعون نحو تطوير فكرة تُجَسِّم فعليّا انخراط الذّات في العالم صلب تحليل

---

[3] _ العلوم الإدراكية أوعلوم الإدراك sciences cognitives : ورد في لالاند،ج2ص177« cognitionعلم، معرفة (فعل المعرفة).مصطلح انكليزي؛ غير مستعمل في الألمانية[...]تُستعمل هذه الكلمة أحيانا بالفرنسيّة، اما للدّل على فعل المعرفة واما للدّل على المعرفة عموما.أما الكلمة الانكليزية فيحدّدها فلمينغ وكالدروود بأنّها المعرفة بالمعنى العام جدّا، وبنحو خاصّ،تفسير انطباع حسّي» نفهم من ذلك أنّ التّسمية sciences cognitives تشير إلى العلوم التي تدرس المعرفة، أي علوم المعرفة. وهذا جدّ عام، فبالنّظر إلى موضوعها المخصوص والمشترك نفهم أنّه الإدراك بما أنّ سؤالها الرّئيس هو كيفيّة عطاء الموضوعات للعقل. لذلك آثرنا ترجمتها ب "علوم الإدراك" تلك التي تتخذ من الإدراك موضوعا لها، مثل علم النّفس وعلم الأعصاب والابستيمولوجيا والمعلوماتيّة ...).

[4] _ Denis Seron, Introduction historique à la philosophie phénoménologique, presse universitaire de Liege, 2016-2017, p45.

يوسّع الفكرة الهوسّرلية عن الذّات وعن العالم بالشّكل الذي يمكّننا من تحصيل آفاق أرحب إذا بحثنا في المكوّنات الفيزيولوجية العصبيّة للذّات. أمر سيضيّق التّرنسندنتالي ويفرض نوعا من الإلهمام الفينومينولوجي بالحقيقة (والتي يُمكّننا منها العلم) على حساب المعنى الذي استأثر بوِجهة الفينومينولوجا. إنّ في ذلك «ارتداد عن التّرنسندنتالي نحو الأعماق الدّائمة منقوصة المعنى»[5]، وهو أمر صارت الفينومينولوجيا مدعوّة إليه.

أ– دواعي الطّبعنة في الفينومينولوجيا

أصحاب التوجّه الطّبيعيّ في الفينومينولوجيا يطمحون إلى إيجاد مواضع جديدة للقاء علوم الطّبيعة بعلوم الرّوح. مواضع أخرى غير تلك التي أصرّ هوسّرل عليها والتي بمقتضاها تكون الفلسفة فينومينولوجيا ترنسندنتاليّة قبليّة تُهيِّئ للعلوم شروط الإمكان وتمنح المشروعيّة. هم يُقدّرون أنّه «بإمكان العلوم الطّبيعيّة المساهمة بوجه خاص في بناء صرح الفينومينولوجا الترنسندنتاليّة دون انتزاع الوظيفة الترنسندنتاليّة للفينومينولوجا»[6] وأنّ «انجاز "فينومينولوجا مُطبعَنة" وفقا لهذه القراءة، هو استخدم الوصف الفينومينولوجي لتجربة الوعي ضمن مقاربة طبيعانيّة وتفسير الوعي بوصفه شيئا طبيعيّا حاملا لخصائص طبيعيّة».[7]

هذه الأرضيّة الجديدة التي يبحث عنها المصالحون بين طبيعانيّة والفينومينولوجيا، تسمح بتجاوز الاختلاف في المنهج فتُعطي دَفعة جديدة للوعي وآفاقا أخرى لفهمه، هذا الشّأن يدعوهم إلى إعادة قراءة هوسّرل (الذي حارب الطبيعانيّة في كلّ أشكالها وخاصّة النّفسانيّة وفي كل ظهوراتها الواقعيّة والمادّية والوضعيّة، منذ "مباحث منطقيّة" إلى "الأزمة" وبوجه خاصّ في مقال اللّغوس) باحثين– على غير عادة قُرّاء نصوصه– عن روابط ممكنة بين الفينومينولوجيا والطبيعانيّة. ذاك أنّ «المرحلة الحديثة للعلوم الإدراكيّة تمثّل تعديلا هامّا في التّاريخ المشترك للرّوح والطّبيعة، فالعلم [...] للمرّة الأولى سيعرف تأييدا تامّا لمشروعيّة استكشاف المعرفة في ذاتها، وفي كلّ المستويات بعيدا عن الضّوابط التّقليديّة لعلم النّفس والإبستيمولوجيا التي كانت تطوّقها».[8]

لكن خلف هذا الدّافع هناك آخر يأذن بتحيين الفينومينولوجيا طبيعانيّا. إنّه التّطوّر العلمي. هذا التّطوّر وبشكل خاصّ آخر القرن XX حمل إلينا ظواهر شديدة

[5] _ Jean-Luc Petit, De la neurodégénérescence motrice comme limitation interne du « pouvoir-faire », *in*, *la naturalisation de la phénoménologie 20 ans après*, Les Cahiers philosophiques de Strasbourg, nº38, 2015: 241-267, p265.

[6]_ Maxwell J. D. Ramstead, Naturalizing what? Varieties of naturalism and transcendental phenomenology, in, *Phenomenology and the Cognitive Sciences,* nº14(4),September 2014,929-971, p 929.

[7] _ Ibid, p 937.

[8] _ Francesco Varela, invitation aux sciences cognitives, Seuil, Paris, 1996,pp 10-11.

التّعقيد لا متناهيّة في الصّغر وفي التّركيب تسمح بالحديث عن ظهورات جديدة في معنى الانبثاقات كما يسمّيها بوتيتو الذي يقول «مفهوم الانبثاق، هنا، لا يُؤخذ بمعنى واسع ولا ميتافيزيقي. إنّه يُحيل على التّطوّر التّقني الملحوظ خلال العشرين سنة الأخيرة في الدّيناميكيّة النّوعيّة[...] وفي فهم مسارات الانتظام التي تُنتج بنيات مكروفيزيائيّة والتي تقبل الاختزال سببيّا في مسارات ميكروفيزيائية ضمنيّة [تكمن خلفها] وتُثبت مع ذلك وجود خصائص ذاتيّة ثابتة أو مستقلّة»[9].

أن تكون الظّاهرة الميكروفيزيائيّة تخضع للتّقليد العلمي بقبولها الانتظام ضمن بنية وفي نفس الوقت تكون لديها خصائص "ثابتة" و "مستقلّة" عن البنية، فهذا أمر غير مألوف في العلم وهو ما يبرّر في تقدير بوتيتو استخدام مفهوم الانبثاق الذي هو مفهوم فينومينولوجي هوسّرلي بامتياز. وتتوسّع دائرة الإحراجات العلميّة كلّما توسّعت التّطبيقات التّقنيّة للمُنْجَز النّظري العلمي خاصّة في المجالات التي تتّصل بالإدراك سواء نظرنا إليه بوصفه موضوعا(علم النّفس وتطبيقاته) أو مجالا يتفاعل معه (تكنولوجيا المعلومات مثلا)، ذاك أنّ «علوم الإدراك وتكنولوجيّاتها [...] تعبّر عن الثورة المفهوميّة والتّكنولوجيّة الأهمّ منذ ظهور الفيزياء الذّريّة».[10]

هذه الثّورة أوجدت حقولا ابيستيمولوجيّة جديدة بموجبها «توجد حاجة لإدماج مستوى ما من التّفسير الفينومينولوجي الإضافي داخل العلوم الإدراكيّة».[11] فإلى ما يتطلّع أصحاب هذه الحقول الجديدة؟

ب– رهانات تيّار طبعنة الفينومينولوجيا

حسب التّصوّر الفينومينولوجي السائد منذ بداية القرن XX «للرّوح مكوّنان متمايزان هما من جهة القصديّة ومن جهة أخرى الوعي الفينومينالي».[12] في النّصف الثّاني من ذات القرن، حاول فلاسفة العقل تطبيع القصديّة. وفي آخر القرن ارتأى بعضهم عدم كفاية ذلك، إذ يتوجّب استكمال تطبيع العقل بتطبيع الوعي الفينومينالي. أولئك هم أصحاب مشروع طبعنة الفينومينولوجيا. من المؤكّد أنّ الطّبعنة سابقة لهم ولكنّها كانت تقتصر منذ برونتانو على القصديّة أي ما يخصّ الحياة الخارجيّة للعقل. أمّا مُطبعنو الفينومينولوجيا في آخر القرنXX فيؤكّدون ضرورة استكمال المشروع بتمديد الطّبعنة ليشمل الحياة الذّاتية للعقل. إنّه السّبيل الأوحد لسَدّ الثّغرة التّفسيريّة التي أبقت المشروع الطّبيعانيّ عاجزا عن ولوج المجال الدّاخلي للذّاتيّة وفي الآن سدّ ثغرات الفهم الفينومينولوجي الذي بدوره لم يتوصّل إلى تفسير مقنع لعلاقة

[9] _ Jean Petitot, « Phénoménologie naturalisée et morphodynamique:la fonction cognitive du synthétique a priori» Intellectica, n°17, 79_126, 1993,p80.

[10] _ Francesco Varela, invitation aux sciences cognitives, p21.

[11] _ Denis Seron, Introduction historique à la philosophie phénoménologique, p45.

[12] _ Ibid.

الحياة القصديّة (بما هي موضوعيّة خارجيّة للعقل) بالموضوعيّة الذّاتيّة الدّخليّة (الفينومينياليّة).

غياب هذا المشروع هو ما كان يمنع قيام نظريّة طبيعيّة توحّد العقل أي نظريّة طبيعانيّة فينومينولوجيّة حقّة، توحّد القصديّة والوعي الفينومينالي دون أن تكون ترنسندنتاليّة مُفرِطة في المثاليّة. لأجل ذلك يراهن أصحاب المشروع على: –

– إيجاد تصوّر طبيعانيّ للوعي الفينومينالي منفتحين في ذلك على كل مُنتَج الفلسفة القارّية مُطوّرين إيّاه، وبوجه خاصّ أعمال هوسّرل وميرلوبنتي لأنّه «بالنّسبة لهوسّرل وميرلوبنتي، الجسم ليس شيئا من أشياء العالم فحسب، ولكنّه أيضا وسيط بفضله يأتي العالم إلى الوجود، إنّه مصدر تجربة»[13].

– تحقيق رهان أكبر، هو تجاوز التّقابل الثّنائي الدّيكارتي للرّوح والجسم. السّبيل إلى ذلك هو العمل على إيجاد طبيعانيّة علميّة أكثر اتساعا بإعطائها دعائم فينومينولوجيّة، وذلك بتطبيع العقلي. على أنّ ذلك «لا يعني نفي أن يكون هناك معنى لكيانات عقليّة وإنّما، بالتأكيد –ضدّ الثّنائيّة الدّيكارتيّة– على أنّ العقلي ليس من نوع أنطولوجي مختلف»[14]

أصحاب هذا المشروع لا يكفّون عن التأكيد على أنّ «إدراج علوم الطّبيعة ضمن هذا الفضاء التّأويلي يُمكّن الفلسفة الفينومينولوجيّة من انجاز نقد ترنسندنتالي متميّز ومن تفهّم تعسّف التّقنية المُتمركز في عمق الرؤية العلميّة»[15]، كما لا يكفّون عن التأكيد على أن النصّ الهوسّرلي عينه يسمح بذلك. فعلى أي نحو يستحظرون مدوّنته؟

٢– كيف نؤوّل النّص الهوسّرلي طبيعانيّا؟

كتب جون–لوك بوتي: «إذا كانت الفينومينولوجيا كما هي لا تسمح بأن تُطبعَن، فإنّه بإمكانها أن تقبل–إلى ذلك ودون أي مشكل– توسيع الآفاق التي تجلبها الطّبعنة، والتي بكلّ تأكيد لا تؤثّر على المشروع الفينومينولوجي، بل تُثريه».[16]هل يعني هذا القول أنّنا أمام تأويل جديد لنصوص هوسّرل؟

إنّ الذين يتبنّون طبعنة الفينومينولوجيا يعتبرون مهمّتهم تحدّيا. إذ أنّ موقف هوسّرل من الطبيعانيّة يوجب عليهم"ع□بور الخندق". "عُبور الخندق" هي العبارة التي عُنْونت بها مقدّمة كتاب" طبعنة الفينومينولوجيا، محاولة في الفينومينولوجيا المعاصرة والعلوم الإدراكيّة" الذي جُمِّعت فيه

[13] _ Jean Petitot, F Varela, B. Pachoud, J. M. Roy, Introduction,in, Naturaliser la phénoménologie: Essais sur la phénoménologie contemporaine et les sciences cognitives. CNRS éditions, 2002,Paris, p75.

[14] _ Denis Seron, Introduction historique à la philosophie phénoménologique, p45.

[15]_Christopher Macann, Spiritualisation de la phénoménologie,in,La naturalisation de la phénoménologie 20 ans après, p278.

[16] _ Fausto Fraisopi, L'intentionnalité naturalisée Le seuil métathéorique entre phénoménologie et sciences cognitives, in, *la naturalisation de la phénoménologie 20 ans après*, p201.

مقالات لجون بوتيتو وفرنسيسكو فاريلا وبارنار باشود وجون ميشال روي. إنّ في ذلك إعلان عن صعوبة المهمّة. بوتيتو مثلا يعاين هذا الخندق من خلال مقاربة الذّكاء الاصطناعي على طريقة العلوم الإدراكيّة، مُتَمثّلا لتلك الصعوبة ومتحدّيا في آن، يقول: «استعادة الفينومينولوجيا [الهوسّرلية] في العلوم الإدراكيّة تقود إلى طبعنتها. وعندما نعرف الاعتراض القاطع الذي يؤكد هوسّرل بين الفينومينولوجيا والطّبيعانيّة العلميّة فإنّ الأمر لا يمرّ دون تساؤلات[...] لهذا نحن نقترح هنا توضيحا تقنيّا اعتمادا على مثال جزئي، ولكنّه دقيق- سنقتبسه من الفصل الأوّل من الكتاب الثالث من مباحث منطقيّة-إنّه الدّلالة التي هي فلسفيّة وعلميّة في آن لفينومينولوجيا إدراكيّة مُطَبعَنة».[17]

يقدّم بوتيتو تحليلا لكلّ ما يتعلّق بالماهويّ في فينومينولوجيا هوسّرل مركّزا على "مباحث منطقيّة" ويذكّر بأنّ هوسّرل كان في البداية "رياضيّا حقيقيّا" وأنّ التّعريج إلى الفينومينولوجيا كان بفضل تجاوزه للنّفسانيّة ولأستاذه برونتانو. لذلك يميّز بوتيتو بين رسالة النصّ وروحه. يتعلّق الأمر بالنسبة إليه بإحياء روح فينومينولوجيا هوسّرل دون الانشداد كليّا إلى مضامين نصّه، يقول: «نحن واعون بأنّ في ذلك" خيانة "لرسالة هوسّرل، ولكنّ هذا هو الشّروط الذي لا مناص منه من أجل إحياء روحه من جديد»[18] .

الواضح أنّ بوتيتو انتقائي عند قراءة نصوص هوسّرل،[19] ولكن مع ذلك لا يمكن أن نتصوّر في الأمر إحراجا لبوتيتو ولغيره من القائلين بالفينومينولوجيا الطّبيعانيّة لأنّهم لا يقدّمون أنفسهم كتلاميذ أوفياء لهوسّرل بقدر حرصهم على أن يُظهروا أنفسهم شرّاحا ونقّادا، يستعيدون أفكاره على أنحاء ويجاوزونه على أنحاء أخرى وهم ملتزمون بإشكاليّات نصّه وليس بأطروحاته.

رغم أنّ الجمع بين فلسفة هوسّرل وعلوم الإدراك كان منذ صدور مقال اللّوغوس سيرا على طريق مسدودة، يصرّ روّاد الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة على أَقْلَمَة النّصّ الهوسّرلي مع الطّبيعانيّة. منهم من اشتغل على مفهوم النّوام (هربار درفوس) ومنهم من ركّز بحوثه على مفهوم القصديّة (بوتيتو) وآخرون عالجوا مفهوميْ الرّدّ (نتالي دوبراز) والأنا(فاريلا).

أشرف هربار درفوس على فريق بحث طبيعانيّ جُمِّعت نتائج أعماله في كتاب صدر في 1982 تحت عنوان "هوسّرل، القصديّة والعلوم الإدراكيّة". حاول الباحثون في هذا الكتاب البرهنة على التّشابه بين مفهوم النّوام الهوسّرلي

---

[17]_ Jean Petitot; *« Phénoménologie naturalisée et morphodynamique»*, p80.

[18]_ Ibid, p81.

[19] _ ويمكن أيضا أن نرجع تركيزه على"مباحث منطقيّة" (الكتاب الذي يؤرّخ لتعريج هوسّرل من النّفسانيّة إلى الفينومينولوجيا) إلى أنّه يسبق المنعرج الترنسندنتالي، فربّما وجد بوتيتو في كتاب 1900-1901 أصولا للفينومينولوجيا تقبل الطّبعنة قبل أن يُفْرِط هوسّرل في ترنسندنتاليّة فينومينولوجياه بين 1905و1913 (مرحلة كتب اثناءها مقال اللّوغوس).

ومفهوم التمثّل العقلي كما تستخدمه أغلب العلوم الإدراكيّة. لقد كانت «فينومينولوجيا هوسّرل حمّالة لتصوُّر رمزي معلوماتي [يشبه الذكاء الحاسوبي الاصطناعي] للمسارات الإدراكيّة، ولذلك يمكن اعتباره سَلَف علوم الإدراك».[20] يصرّ دارفوس على وجوب إيجاد تعريف جديد لعلوم الإدراك؛ تعريف مرن يجيز اعتبار الفكر الهوسّرلي يقبل فكرة فينومينولوجيا طبيعانيّة وبماشيها.

بوتيتو بدوره (رغم أنّه لا يقبل فكرة التّشابه بين النّوام والتمثّل العقلي) حرص على تقديم هوسّرل – من خلال نظرية القصديّة– في صورة الشّخصيّة الفذّة السّابقة لعصرها والتي توقّعت التّطورات العلمية ومشكلاتها واستبقتها بالحلول، فيقول: «هوسّرل لم يتوقّع، فقط، علومنا المعاصرة حول المعلوماتيّة، بل أيضا يتجاوزها في معنى أنّه يقدّم أجوبة على المشكل الأكثر صعوبة: مشكل نظريّة داخليّة للقصديّة»[21] لذلك فهو «يبدأ من الوصف الفينومينولوجي للكتاب الثّالث من "مباحث منطقيّة" ومن "شيء ومكان" سائرا نحو ترييضهما».[22]

امّا نتالي دوبراز فقد لاحظت أنّ الطّبعنة ما هي بغريبة عن نصوص هوسّرل وعن مهام الفينومينولوجي، بل هي تتمّمها خاصّة حين يتعلّق الأمر بمسألة التّقوّم. الرّدّ الفينومينولوجي وطبعنته لا يتعارضان بل يسيران سوِيّةً، إذ «الطّبعنة هي تقوُّم الطّبيعة[...] تماما مثلما يتموضع الأنا ذاتيّا في الرّوح وفي الإنسان».[23]

الواضح أنّ مشارب مُطبعني الفينومينولوجا كَثْرَة وتفتح آفاقا فينومينولوجيّة جديدة، لميادين جديدة حمّالة أسئلة جديدة.

٣– أسئلة جديدة لميادين جديدة

من المؤكّد أنّ هاجس "العودة إلى الأشياء" لن يفارق مُطبعني الفينومينولوجيا، والثّابت أنّ فينومينولوجياهم لن تكون إيغولوجيا متعالية، فأي فلسفة يقترحون إذن؟ وماهي مجالات تطبيقاتهم؟ وأيّ مشكلات يطرحون؟

[20] _ Wolf Feuerhahn, «un tournant neurocogniviste en phénoménologie? Sur l'acclimatation des neurosciences dans le paysage philosophique français » in, Revue d'histoire des sciences humaines, Éditions sciences Humaines, nº25, 2011/2, 59-79, p65.

[21] _ Jean Petitot, « Phénoménologie naturalisée et morphodynamique», p 85.

[22]_ Maxwell J. D. Ramstead; Naturalizing what? Varieties of naturalism and transcendental phenomenology, p936.

[23] _ Natalie Depraz, «Genèse transcendantale et projet de naturalisation», in Jean Petitot, Francisco Varela, Bernard Pachoud, Jean-Michel Roy,*Naturaliser la phénoménologie,Essais sur la phénoménologie contemporaine et les sciences cognitives*, Paris, CNRS, 2002, p 615.

أ– ميادين جديدة

يجب أن نشير في البدء إلى أنّ الدّراسات متنوّعة الحقول التي تسعى إلى تقديم نماذج تطبيقيّة لإمكانيّة فينومينولوجيا الطّبيعانيّة، تشترك جميعها في فكرة أساسيّة وهي توطين الذّات المفكّرة صلب وسطها العالمي. هذه الفكرة ستمكّن من تجاوز المثاليّة الذّاتية للفينومينولوجيا (خاصة في صورتها الهوسرليّة) الاختزالية الطّبيعانيّة (التي لا تعترف للوعي بنمط وجود خاصّ، بل تعتبره ظاهرة طبيعيّة). ومن هنا فإنّ كل الباحثين عن طبعنة الفينومينولوجيا يعملون (كلّ في حقله المعرفي) على حمل الوعي على الإقلاع عن الازدواجية التي تبقى غير قابلة للتّجاوز إذ أبقينا على المنهجيّات التقليديّة (ثنائيّة جسم وروح). وكل باحث تناول هذه المقاربة بين الطّبيعة الماديّة والرّوح من زاوية ممكنة. وبهذه الكيفيّة مثلا:–

– فرنسيسكو فاريلا يقترح الاشتغال على النّظريات البيولوجيّة للانتظام الذّاتي التي طوّرها أستاذه همبرتو ماتورانا ضمن ما يسمّيه علوم الإدراك وتكنولوجياتها، وذلك بالتأكيد على أنّ المعرفة مرتبطة بمجال معالجة المعلومة. المعلومة تعبّر عن قدرة إدراكيّة على التعبير عن نظام مُدْمِج لمهارات "الإدراكيّة" عينها»[24].

– نتالي دوبراز وتوماس ديميد يقترحان فينومينولوجيا لدراسة القلب من خلال ظاهرة "المفاجَئة" ضمن تقاطعات علم النّفس والفينومينولوجيا العصبيّة (فينومينولوجيا علم الأعصاب التي طوّرها فرنسيسكو فاريلا).

– جون لوك بوتي يقترح منهجيّة متفرّدة مُكمّلة للرّد الفينومينولوجي الهوسّرلي مستوحاة من دراسات علم الأعصاب وتحديدا دراسة الميكانيزمات الوظيفيّة واختلالاتها. ويأمل الحصول على تفسيرات متوسّلا في ذلك الهندسة. هذا الطريق في تقدير بوتي هو المنهجيّة التي ستمكّننا من تخفيف الصعوبات التفسيريّة في دراسة الذّاتية.

– بوتيتو يعتبر أنّ الديناميكيّة النّوعية للأستاذة الرّياضي روني توم مرجعيّة لطبعنة الفينومينولوجيا. هذه المرجعيّة، في تقديره، تتماشى مع الفينومينولوجيا الهوسّرلية لأنّ هوسّرل كان رياضيّا وكتابه "مباحث منطقيّة" (المرجع الأساس كما يعتبره بوتيتو) يُقرأ رياضيّا بما يفيد أنّ الفينومينولوجيا سليلة عقل رياضي، وتبقى دائما قابلة للمراجعة والتّطوير بواسطة العقل الرّياضي. أمّا مجال تطبيق النظرية الدّيناميكيّة النّوعية فهو الذّكاء الاصطناعي.

سيقوم بوتيتو بـ «ترييض الوصف الماهوي بواسطة مفاهيم هندسيّة أهمّها مفهوم التّلّيف. ويعمل على البرهنة على أنّه بالإمكان إنْفاذُ هذا النّموذج الهندسي [في الفينومينولوجيا] من وجهة نظر الفيزيولوجيا العصبيّة»[25].

المشتغلون على فكرة الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة يؤكّدون دائما على التّحوّلات العميقة التي حملتها العلوم

[24] _ Francisco Varela, invitation aux sciences cognitives, pp12-13.

[25] _ Jean Petitot, «*Phénoménologie naturalisée et morphodynamique*», p108.

الإدراكيّة إلى مختلف مجالات المعرفة. وهم يقاربون جهدهم ضمن ما يسمّونه «باراديغما[...] تيّار التّطوّر المهيمن».[26] وربّما يُعزى تنوّع ميادين تطبيقات الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة إلى أنّ أنصارها قَدِموا من تخصّصات مختلفة، منهم من ذكرنا: جون بوتيتو رياضي التكوين وفرنسيسكو فاريلا بيولوجي ونتالي دوبراز وجون لوك بوتي تكوينهما فلسفي، ومنهم نذكر: جون ميشال سلانسيكيس مبرّز في الرّياضيّات وبيار فرمارش عالم نفس وآلان برتور دكتور في العلوم الطّبيعيّة، ومنهم من لم نذكر وما اختلفوا توجّها. كلّهم فينومينولوجيّون طبيعانيّون في ميادين مختلفة وتُجَدِّد الأسئلة وتُنَوِّعها.

ب– أسئلة جديدة

يعمل فلاسفة الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة على تقديم توضيحات بخصوص مشروع هوسّرل حول العلم الكلّي ويقومون بتوسيع تصوّرنا له طبيعانيّا. سيُتمّمون هذا الأمر بالجمع بين الفينومينولوجيا (بما هيّ علم كلّي) وعلوم الإدراك. جمع يأملون من خلاله افتتاح ميادين جديدة لطرح أسئلة جديدة. سيكون الوصف الفينومينولوجي –في هذه الميادين الجديد– مدخل علوم الإدراك كي تتجاوز التّحليلات المشدود وثاقها إلى الوضعيّة شدّا متعصّبا. سيتعيّن عليهم، من أجل ذلك، أحداث تطبيقات تحدّد كيفيّات تَقَوُّم المعنى صلب النّفسي من الجهتين الوصفيّة الماهويّة (الفينومينولوجيّة) والوصفيّة العلميّة(الطّبيعانيّة) في آن.

هذا التوجّه بدوره ينضوي ضمن سؤال أعمّ يمكن أن يكون وجها من أوجه الحوار بين الفينومينولوجيا وعلوم الإدراك. يتعلّق التّساؤل في هذا المقام بالتّطلّع إلى فهم الانخراط المتجسّد للذّات المفكّرة والأنا في العالم. ما يجمع كل أعمال أصحاب هذا المشروع هو إيمانهم بأنّ طبعنة الفينومينولوجيا هي السّبيل الوحيد لسدّ ثغرات المثاليّة الترنسندنتاليّة التي لم تتمكّن من إعطائنا فكرة مقبولة عن البنى القبليّة لكيفيّات اشتغال التّفكير، وأنّ هذا السبيل حتما ينطلق من الدّراسات الفيزيولوجيّة العصبيّة.

هناك إذا مناخ جديد ووضع جديد للتّفكير في الذّات والعالم والفلسفة والعلم. وبالفعل تسعى هذه البحوث إلى إيجاد فضاء فكري جديد لمعالجات من نوع جديد؛ طبعنة الوعي بما هو ربط بين المعطيات العلميّة المحصّلة في الفيزيولوجيا العصبيّة (أساسا) بمعيشات الوعي. هذا المشروع في تقدير روّاده جدير بالعناية لأنّ «التّطوّرات الحاليّة في الهندسة من ناحيّة والتّقدّم الملحوظ لعلوم الأعصاب من ناحيّة أخرى، جعلت برنامج العقلانيّة الكبير الذي ارتبط بليبنيتز وهوسّرل، أقلّ طوباويّة»[27]. إنّ ربط المعطيات المُتأتّية من

[26] _ Francisco Varela, invitation aux sciences cognitives, p24.

[27] _ Jean-Luc Petit, Présentation, in, la naturalisation de la phénoménologie 20 ans après, p11.

الدّراسات العلميّة بمعيشات الوعي «تمثّل رجاءً أكثر منه واقعا»[28].

وإذا أخذنا في الاعتبار أنّ الحديث عن الأنا يفترض أن نعطيه أولويّة أنطولوجيّة هي في الحقيقة لا توجد فيه إلّا على جهة مجموع العلاقات التي يعاينها هو نفسه مع العالم، فإنّ النماذج التّطبيقيّة الطّبيعانيّة ستكون متنوّعة بحسب هذه العلاقات. هذه العلاقات التي هي للأنا وللعالم في آن بدورها مجالات تخصص علميّة متنوّعة. لذلك ستكون وجهات هذه التّطبيقات متنوّعة هي الأخرى. ولكن يبقى شيء واحد من ثوابت الباحثين عن فينومينولوجيا طبيعانيّة يوحّدهم هو أنّ الأنا لا يمكن طبعنته. وعليه فإنّ أسئلة الفلسفة ستتجه – في الفينومينولوجيا الطّبيعانيّة – نحو إمكان طبعنة الوعي في اللّغة والأفعال والمعيش... وتوضيحا لما تقدّم، نورد أنموذجا تطبيقيّا مختصرا

ج– طبعنة الخاصّات الحسّاسة عند بوتيتو

ستكون هندسة الفينومينولوجيا هي الميدان الجديد، وسيتعيّن السؤال الجديد كالآتي: كيف نُطَبْعِنُ الخاصّات البصريّة الحسّاسة؟

يفتتح بوتيتو مقالته" الفينومينولوجيا المُطبعنة والمورفولوجيا الدّيناميكيّة" بالتّذكير بالتّقليد الفلسفي الألماني الذي يقسّم العلوم إلى علوم الطّبيعة وعلوم الرّوح ويميّز بين السّلوك العلمي التّفسيري في الأولى والسلوك التّأويلي للثّانية، معتبرا أنّ برنامج العلوم الإدراكيّة يقع ضمن هذا الفضاء وأنّ «أفقها هو أفق طبعنة الرّوح والمعنى».[29]

يوجد حسب بوتيتو طريقتنا أساسيّتان مختلفتان لطبعنة الرّوح والمعنى. وِجهة أولى فيها «يحدث الرّبط بالعلوم الطبيعيّة بواسطة نظريّة تأليفيّة لتطبيق البنى الرّمزيّة الصّوريّة داخل قوام مادّي».[30]الوِجهة الثّانية، هيّ أن نرفض كلّيا هذه الفكرة الثّنائيّة التي تُوجِد نمطان مختلفان للموضوعيّة (التّفسير والتّأويل) بناء على التّمييز بين «الموضوعيّة السببيّة الماديّة والموضوعيّة الماهويّة المنطقيّة».[31]سيعمل بوتيتو على بناء واحديّة طبيعانيّة وذلك باستحضار فينومينولوجيا هوسّرل هادفا إلى: «ترجمة عدد من الصّياغات الهوسّرليّة داخل سياقات نظريّة (معرفيّة ورياضيّة) معاصرة»[32].

يشتغل بوتيتو في هذا المقال على مثال تحليلي فينومينولوجي طبيعانيّ (مثال جزئيّ ودقيق). هذا المثال هو عينه الذي اشتغل عليه هوسّرل في الفصل الأوّل من الكتاب الأوّل من "مباحث منطقيّة" وهو مثال الإدراك البصري. سيعمل على «توضيح المعنى الفلسفي والعلمي في آن لفينومينولوجيا إدراكيّة مُطبعَنة، وذلك بالاشتغال تقنيّا على مثال جزئيّ دقيق[...]المثال المتعلّق بالإدراك البصري»[33].يتّبع بوتيتو استراتيجيّة كالآتي: أوّلا الإهتمام بالخاصّات البصريّة الحسّاسة من خلال التّجربة الحسّية البصريّة التي تقدّم بعض الخصائص الذّاتيّة (مثل اللّون). ثانيّا، إذا تمكّنا من طبعنة هذه

[28]_ Ibid, p 12.
[29] _ Ibid, p79.
[30] _ Ibid.
[31]_ Ibid.
[32] _ Ibid, p 81.
[33] _ Ibid, p 80.

الخصائص الحسّاسة (الموضوع المميّز للفينومينولوجيا) فإننا بذلك نطبعن الفينومينولوجيا عينها.

ينطلق بوتيتو من نظريّة الأجزاء المنطقيّة الواردة في الكتاب الثّالث من "مباحث منطقيّة" والتي يتناولها هوسّرل في معنى جيشتالتي. فهذا التّصوّر «ضروري لمعالجة الصّورة التي تتمّ بواسطة تقطّعات كيفيّة»[34].هذا الأمر شديد الدّقة، إذ سيتوجّب على بوتيتو أن يَشتقّ عددا هامّا من "التركيبات النُّوِيمَيَّة"[35] لبنى أساسيّة للمجال الإدراكي. بالعودة إلى الفقرة الثّامنة من الكتاب الثّالث من "مباحث منطقيّة" يؤكد بوتيتو الحقيقة الفينومينولوجيّة الهوسّرلية القائلة بأنّه لا يمكن أن تكون هناك لحظات حدسيّة كميّة متّصلة، إلا إذا كانت تتفاعل مع بعضها البعض ضمن كلّية اتصالية بوصفها وحدة كيفيّة لماهيات، فـ «الاتصالية تُفهم[...]بوصفها وحدة كمّية، أمّا الانفصالية فتُفهم كاختلاف كمّي».[36]هكذا تُشتقّ جملة من "التركيبات النُّوِيتيَّة" على غرار الاتّصال والانفصال مثل الانصهار والتّفكُّك والانتشار.

هذه التركيبات الجشتالتيّة الأساسيّة هي ما يتوجّب طبعنته. هذا الأمر «يستدعي بشكل أساسي مفهوم المكان (التّوسّع-الامتداد)»[37]لذلك يذكّر بوتيتو بالمبدأ الكلاسيكي للبسيكولوجيا الجشتالتيّة المتعلّق بتأسيس الخاصّات الحسّية داخل الامتداد. بمعنى أنّه في علميّة الإدراك الحسّي البصريّ لا شيء يتحوّز على الإمداد غير تلك الخاصّات البصريّة.

يوجد أوّلا امتداد مكاني، تشغله فيما بعد خاصّات حسّاسة بالكيفيّة التي تجعل الخاصّات الحسّاسة تظهر دائما في الإمدادات المكانيّة (الألوان مثلا). إنّ ارتباط الخاصّات الحسّاسة بالامتداد المكاني يمكن أن تمثّل نقطة ارتكاز لهندستها (ومنها إلى هندسة الفينومينولوجيا عامّة). وبما أنّ الخاصّات الفينومينولوجيّة هي بالضّرورة امتدادات مكانيّة، بإمكاننا التّوصّل إلى رسم هندسي للخاصّات الفينومينالّية. ومع أنّ

---

[34]_ Jean Petitot, « Phénoménologie naturalisée et morphodynamique»,p95.

[35] _ نسبة الى "نُويما"؛ نحت هوسّرل مفهومي النّواز والنّويم، اشتقاقا من لفظتين اغريقيّتين: نُويسيس التى تدلّ على فعل الفكر ونويما التى تدلّ على موضوعه. في الاستخدام الهوسّرلي النّويز دالّة على فعل الفكر المنسوب إلى الذّات والنّويما على الموضوع المقصود من حيث هو في هذا الشأن هو مقوّم المعيش داخل الوعي. راجع:
- فتحي إنقزو، هوسّرل ومعاصروه، من فينومينولوجيا اللغة لى تأويليّة الفهم، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت-لبنان، الدّار البيضاء-المغرب، 2006، ص36.

_ J. Hintikka, la notion de l'intuition chez Husserl, in, *Revue internationale de philosophie*, 2(2003) nº224, pp169-191.

_ D. Follesdal, Husserl, la dimension phénoménologieque, in, *Les études philosophique*, nº1(1995)، pp39-64.

[36] _ Jean Petitot, « Phénoménologie naturalisée et morphodynamique», p102.

[37] _ Ibid, p 99.

هوسّرل يؤكد عدم إمكان هندسة هذه الخاصّات في الأنا، فإنّ بوتيتو انطلاقا من فكرة الاتصالية الكيفيّة لهوسّرل يستطيع إثبات إمكان الترييض في الفينومينولوجيا –انطلاقا من فكرة الاتصالية الكيفيّة لهوسّرل– بما أنّ المنفصل موضوع رياضيّ. ثم إنّه يمكن أن نبني تصوّرا كميّا متّصلا بشأنه ما دامت الخاصّات الحسّية توجد في المكان، وهو أمر لا يتعارض مع نظريّة الماهيّات. وعليه فإنّ بناء نموذج رياضي فينومينولوجي للإدراك البصري أمر ممكن. بعد ذلك لا يبقى سوى ملائمة هذا التّصوّر الرّياضي داخل الموضوع الفينومينولوجي (رسم الخاصّات الفينومينالّية البصريّة هندسيّا) للواقع العيني وذلك بـ «تعيينه داخل شبكات عصبيّة (الوعاء "الدّاخلي" للطّبعنة)».[38]

[38] _ Jean Petitot, « Phénoménologie naturalisée et morphodynamique»,p108.